القصيدة السيرذاتية واستراتيجية القراءة في الشعر الفلسطيني المعاصر*

الباحث الدكتور خليل هياس

الملخص:
شهدت الساحة النقدية العربية في العقود الأخيرة حضوراً ملحوظاً للسيرة بوصفها جنساً أدبياً مستقلاً، له مقوماته وأسسه البنائية الخاصة، كما تنوعت السيرة تنوعاً ملحوظاً أدى إلى تفرعات نوعية عديدة، بحكم انفتاحها المفرط على أساليب الكتابة الإبداعية المتنوعة، الأمر الذي أسفر عن تصنيف أنواعها إلى عشرات الأنواع ، أغلبها ناتج من تلاقح جنس السيرة مع غيره من الأجناس الأدبية، من : رواية، وقصة، ومقالة، وشعر، وخاطرة، ورسائل.
وعلى هذا الأساس كان عنوان هذه الأطروحة الذي سلط الضوء على منطقة سيرية بكر، لم تتلقفها أيدي الدارسين، إلا بعجالة، نتيجة ضآلة المدونة النقدية العربية في منطقة القصيدة السيرذاتية، أما سبب اختيار العينات التطبيقية من الشعر الفلسطيني، فلأنّ هذا الشعر من أكثر النماذج الشعرية صلة بالجانب السيري، إذ تتمركز فيه الرؤية السيرية – وأغلبها ذاتية – تمركزاً واضحاً، تتجلى في تمظهراتها النصية بالإسناد إلى الذاكرة التي نراها في الشعر الفلسطيني ملازمة للخيال، ومتموضعة معه على خط تماس واحد.
فالقصيدة عند الشاعر الفلسطيني لا تبارح – غالباً – منطقة الذات وتخومها، لأنها تنبع من شرطها الإنساني الحامل لقضية مصيرية، لا يقف عند فضائها المحلي الضيق المرتبط بالطرح السياسي لهذه القضية، بل يتعداها إلى آفاقها الإنسانية الرحبة، الحاملة للهم الإنساني بمداه الكوني الذي يحمله كل بني البشر.
تتوزع مادة الأطروحة على بابين يسبقهما تمهيد متكون من ثلاثة محاور، يمهد للقارئ الطريق للولوج إلى المتن، جاء المحور الأول منه لبسط القول في مصطلح (الاستراتيجية) بوصفه النسيج الذي يهيئ شروط التلقي، ويقيّم العلاقة بين السياق المرجعي والقارئ، لكي يتم بموجبه فعل القراءة.
أما المحور الثاني، فتناول مصطلح (القصيدة السيرذاتية)، وما يثيره هذا المصطلح من إشكاليات قرائية، منها ما يتعلق بطبيعة التهجين بين الشعر، والسيرة الذاتية ذات المرجعية الواقعية، ومنها ما يتعلق بطبيعة التداخلات بين هذه القصيدة والأنواع الأدبية الأخرى ذات العائلة الأجناسية الواحدة، وجاء المحور الثالث ليخوض في التعالق الإشكالي المتمخض

من تداخل السردي في الشعري، نتيجة التهجين الأجناسي بين الشعر والسيرة الذاتية.

وقبل الذهاب إلى محتويات المتن، لا بد من الوقوف عند ركن آخر من أركان العنوان، يتمثل في الإشارة الواضحة إلى نظرية القراءة التي تتبناها الدراسة، لتكون بمثابة البوصلة التي توجه القارئ، ولعل السبب في هذا الاختيار مرده إلى مسألتين رئيستين هما :

١- كون نظرية القراءة نظرية مفتوحة على المناهج الأدبية المختلفة، مما يفسح المجال أمام قراءتنا لتزور أكثر من منطقة منهجية.

٢- خصوصية النوع الأدبي المتمثلة بسيرذاتيته والتي تخضع من خلالها النصوص إلى أفق قرائي خاص مرتبط بواقعيته المسرودة في النصوص، مما يفسح المجال لقراءة جوالة بين الداخل والخارج نصي، على أن هذه القراءة لا تعني اللجوء إلى التطابق بين ما حدث في الواقع وما مدون في النص، بل أن القراءة في مثل هذه النصوص، تستجيب لرؤية مفادها أن الوقائع النصية مصاغة برؤية فردية، تعيد النظر في الحياة التي عاشها المؤلف، وتقدمها عبر كشف ذاتي خالص، ومن هنا تتعدد القراءة تبعاً لرؤية القارئ المدفوع بإيجاد نوع من المقارنة بين ما مدون، وبين معطيات الواقع من جهة، وبين حياة المبدع وحياته من جهة أخرى، إذ كثيراً ما يحصل أن ينسى القارئ نفسه فيتقمص شخصية الكائن السيري مقتنصاً المشتركات الحياتية بينهما.

جاء الباب الأول تحت عنوان (القصيدة السيرذاتية : تجنيس النص وموجهات الفعل القرائي)، وفي سياقه عاينت القراءة مرتكزات القصيدة السيرذاتية في جانبها التوثيقي الذي يؤكد سيرذاتية النص، وقد توزع الباب على فصلين:

الأول: تحت عنوان (القصيدة السيرذاتية والتعالق ما بين الداخل نصي والخارج نصي) وقد اشتغل التعالق في محورين: أولهما كان في منطقة الذات السيرذاتية المتحققة في الضمير السيرذاتي على الصعيد النصي، وفي اسم العلم على الصعيد الخارج نصي، وثانيهما عمل على إبراز الترابطات بين النص الراهن والنصوص الأخرى للمؤلف، مما يشكل شبكة من العلاقات المتناصة فيما بينهما، التي تؤكد في النهاية سيرذاتية النص.

الثاني: تم تخصيصه للموجهات التي تعد عتبات قرائية تمهد للقارئ الطريق للولوج إلى النصوص، وكان تحت عنوان (مفاتيح القصيدة السيرذاتية ودلالة العتبات)، وضم في طياته أهم العتبات المتمثلة بـ: العنوان، لوحة الغلاف، اسم المؤلف، الإهداء، المقدمة.

واختص الباب الثاني بـ(فضاء القصيدة السيرذاتية)، وتضمن مدخلاً وثلاثة فصول، عالجت الدراسة في المدخل مصطلح الفضاء المسردن، والذي جاء بمثابة تمهيد موصل إلى تبني مفهوم خاص بمصطلح فضاء القصيدة السيرذاتية، موضحاً من خلال ذلك نقاط التلاقي والاختلاف بين الفضائين.

أما الفصل الأول، فاختص بدراسة الرؤية بوصفها المرتكز الأساس في تشكيل الفضاء، فهي بمثابة الكاميرا المصورة التي من خلالها يتم تقديم كل عناصر النص السردي، وقد جاء الفصل في أربعة محاور، مثّل كل محور زاوية رؤية معينة

تفرضها طبيعة النص المنتخب للدراسة عند كل شاعر من شعرائنا الأربعة، فتناولت الدراسة مأساوية الذات والحس السيري الجمعي عند الشاعر جبرا إبراهيم جبرا، من خلال انتخاب قصيدة (خماسية الصيف).

وذهبت الدراسة عند محمود درويش إلى مرآوية الذات من خلال جعل الأنا ناظرة ومنظورة من الأنا نفسها وذلك، من خلال قصيدة (أرى شبحي قادماً من بعيد)، أما لدى القيسي، فتم الوقوف عند بلاغة التفاصيل في تشكيل الرؤية السيرذاتية، بانتخاب قصيدة (كان يرى طريق المدرسة)، وأخيراً عاينت الدراسة عند إبراهيم نصر الله جدلية الموت والحياة في منظور الكتابة السيرذاتية، واختارت لذلك قصيدة (حديث عائلي).

وفي الفصل الثاني تم تناول المكان بوصفه عنصراً مهماً في النص السيرذاتي، تتجاوز أهميته كونه لبنة مهمة في البنية السردية، ليكون أكثر بؤرية، بوصفه يضطلع بوظيفة مزدوجة ذات تأثير متبادل، قبلي : نتيجة لمرجعيته الواقعية، وبعدي: بوصفه عنصراً مكوناً للنص بعد وجوده، وتفرع الفصل إلى مسربين، شكلا مع بعضهما ثنائية الإقامة الدائمية / والإقامة المؤقتة، ومن هذه الثنائية تنبثق ثنائيات فرعية عديدة، لعل من أهمها: (المغلق/ المفتوح)، و(الأليف/ المعادي)، وضم المحور الأول – الإقامة الدائمية – كلاً من البيت، القرية، المدينة. وضم المحور الثاني – الإقامة المؤقتة – كلاً من البيت المؤقت، الفندق، السجن، المدينة.

وكان الفصل الثالث والأخير من الباب الثاني، خاصاً بالزمن، ليكمل المرتكزات التي يقوم عليها الفضاء المسردن بشكل عام، وفضاء القصيدة السيرذاتية بشكل خاص، وهذه الخاصية تكمن في الإشكالية التي يطرحها الزمن السيرذاتي عندما يكشف عن تلك المفارقة الزمنية الحاصلة بين زمن الكتابة، وزمن التجربة، مما يشي بوجود مسافة فاصلة بين من عاش الحدث، ومن يسرد الحدث، وقد انقسم الفصل على محورين رئيسين، تنبثق منهما عناوين فرعية أخرى، إختص المحور الأول بالترتيب الزمني، وضم الاستباق والاسترجاع، والروابط الزمنية المتفرعة إلى: الاستعادة، والتداعي، والتتابع، أما المحور الثاني، فاختص بالمدة الزمنية، المنقسم بدوره على : التسريع الزمني المتفرع إلى تقانتين داخليتين هما: الخلاصة والحذف، والتعطيل الزمني المتفرع بدوره إلى تقانتين داخليتين هما: الوقفة الوصفية، والمشهد الحواري.

*** هذه الأطروحة في اختصاص الأدب العربي الحديث وقد قدمت إلى قسم اللغة العربية بكلية التربية جامعة الموصل، سنة ٢٠٠٧، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها، وقد حصلت على درجة امتياز، وقد تألفت لجنة المناقشة من الأستاذ الدكتور إبراهيم جنداري جمعة رئيساً، والأستاذ المساعد الدكتور محمد جواد البدراني عضواً، والأستاذ المساعد الدكتور محمد صالح رشيد عضواً، والأستاذ المساعد الدكتور بدران عبد الحسين محمود عضواً، والأستاذ الدكتور عبد الستار عبد الله عضواً ومشرفا.**